أبو بكر الرازي

للأستاذ قدري حافظ طوقان

« لقد خصصت جامعة برنسيون في أمريكا أفخم ناحية في أجل ابنيتها لأكرم من أعلام الحضارة الخالدين — الرازي — »

الرازي حجة الطب في أوربا حتى القرن السابع عشر للميلاد . ويعده معاصروه طبيب المسلمين غير مدافع ظهر في منتصف القرن التاسع للميلاد واشتهر في الطب والكيمياء والجمع بينهما. وهو في نظر المؤرخين من أعظم أطباء القرون الوسطى كما يعتبره غير واحد أنه أبو الطب العربي . قال عنه صاحب الفهرست . « ... كان الرازي أوحد دهره وفريد عصره ، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء ، سيما الطب ... » وسماه ابن أبي أصيبعة بجالينوس العرب .

ولقد عرف الخليفة العباسي عضد الدولة مقامه ، ورأى أن يستغل مواهبه ونبوغه ، فاستشاره عند بناء البيمارستان العضدي في بغداد في الموضع الذي يجب أن يبنى فيه ، وقد سار الرازي في تعيين المكان على طريقة مبتكرة يتحدث بها الأطباء هي محل اعجابهم وتقديرهم . وضع الرازي قطعاً من اللحم في انحاء مختلفة من بغداد ولاحظ سرعة سير التعفن . وبذلك تحقق من المكان الصحي المناسب لبناء المستشفى . وأراد عضد الدولة أن يكون في هذا المستشفى جماعة من أفاضل الأطباء وأعيانهم فأمر أن يحضروا قائمة بأسماء الأطباء المشهورين فكانوا يزيدون على المئة فاختار منهم خمسين بحسب ما وصل إلى علمه من مهارتهم وبراعتهم في صناعة الطب ، فكان الرازي منهم ؛ ثم اقتصر من هؤلاء على عشرة فكان الرازي منهم ثم اختار من العشرة ثلاثة فكان أحدهم ، ثم إنه ميز فيما بينهم فبان له أن الرازي أفضلهم فجعله مديراً للبيمارستان العضدي .

وكذلك اعترف بفضله الغربيون وعلماء أميركا وجامعاتها . ومما يدل على تقديرهم للطب العربي ورجاله اهتمام جامعة برنستون بالحضارة الاسلامية ؛ فقد خصصت أفخم ناحية في أبنيتها لأكرم علم من أعلام الحضارة الخالدين — الرازي — كما انشأت داراً لتدريس العلوم العربية والبحث عن المخطوطات وإخراجها ونقلها إلى الإنكليزية ليتمكن العالم من الوقوف على آثار التراث الإسلامي في تقدم الطب وازدهار العمران .

كان الرازي منتجاً إلى أبعد حدود الانتاج ، فقد وضع من المؤلفات ما يزيد على المائتين والعشرين ضاع معظمها أثناء الانقلابات السياسية في الدول العربية ولم يبق منها إلا القليل في بعض مكتبات أوربا .

ألّف الرازي كتباً قيمة جداً في الطب ، وقد أحدث بعضها أثراً كبيراً في تقدمه وفي طرق المداواة . وقد امتازت بما تجمعه من علوم اليونان والهنود إلى آرائه وبحوثه المبتكرة وملاحظات تدل على النضج والنبوغ كما تمتاز بالأمانة العلمية ، إذ ينسب كل شيء شيء نقله إلى قائله وأرجعه إلى مصدره . لقد سلك الرازي (كما يتجلى من كتبه) في تجاربه مسلكاً علمياً خالصاً ، وهذا ما جعل لبحوثه في الكيمياء قيمة دفعت بعض الباحثين إلى القول : «أن الرازي مؤسس الكيمياء الحديثة في الشرق والغرب معاً »

وضع الرازي كتاباً نفيساً هو كتاب (سر الأسرار) ضمنه المنهاج الذي يسير عليه في اجراء تجاربه ، فكان يبدأ بوصف المواد التي يشتغل بها ثم يصف الأدوات والآلات التي يستعملها. وبعد ذلك يصف الطريقة التي يتبعها في تحضير المركبات . وصف الرازي في كتابه هذا وغيره ما يزيد على عشرين جهازاً — منها المعدني — وصفاً حالفه فيه التوفيق على غرار ما نراه الآن في الكتب الحديثة التي تتعلق بالمختبرات والتجارب . وفوق ذلك كان يشرح كيفية تركيب الأجهزة المعقدة ويدعم شروحه بالتعليلات التفصيلية الواضحة . ولسنا بحاجة إلى القول أن هذا التنظيم الذي يتبعه الرازي هو تنظيم يقوم على أساس علمي يقرب من التنظيم الذي يسير عليه علماء هذا العصر في المختبرات . والرازي من أوائل

الذين طبقوا معلوماتهم فى الكيمياء على الطب ، ومن الذين ينسبون الشفاء إلى إثارة تفاعل كيمياوى فى جسم المريض .

ويتجلى فضل الرازى على الكيمياء بصورة واضحة فى تقسيمه المواد الكيميائية المعروفة فى زمنه إلى أربعة أقسام أساسية وهى : المواد المعدنية ، والمواد النباتية ، والمواد الحيوانية ، والمواد المشتقة . ثم قسم المعدنيات لكثرتها واختلاف خواصها إلى ست طوائف . ولا يخفى ما فى هذا التقسيم من بحث وتجربة وهو يدل على « المام تام بخواص هذه المواد وتفاعلاتها بعضها مع بعض ... » واستحضر الرازى بعض الحوامض ولا تزال الطرق التى اتبعها فى ذلك متبعة إلى الآن . واستخرج الكحول باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة . واشتغل الرازى فى حساب الكثافات النوعية للسوائل « واستعمل كذلك ميزاناً خاصاً سماه الميزان الطبيعى » .

وجاء الرازى بفكرة جديدة تعارض الفلسفة القديمة الموروثة وهى (أن الجسم يحوى فى ذاته مبدأ الحركة) وهى تشبه مذهب إليه (ايونز) فى القرن السابع عشر . ويعلق (دى بور) على هذا فيقول: « .. ولو أن رأى الرازى هذا وجد من يؤمن به ويتم بناءه لكان نظرية مثمرة فى العلم الطبيعى ... »

والرازى يعظم صناعة الطب وما يتصل بها من دراسات . ولعل هذا من عوامل اهتمامه بالكيمياء . وهو يمتاز على الأطباء الذين عاصروه والذين أتوا بعده فى كونه لمس أثر النواحى النفسية فى العلاج والتطبيب . فهو يرى « .. أن مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » ذلك لأن للنفس الشأن الأول فيما بينها وبين البدن من صلة ، فنجد أنه أوجب على طبيب الجسم أن يكون طبيباً للروح . فمن أقواله التى وردت فى كتبه : « .. على الطبيب أن يوهم مريضه الصحة ويرجيه بها وإن لم يثق بذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس .. »

وللرازى مؤلفات قيمة فى الطب ، ولعل كتاب الحاوى من أعظمها وأجلها . وهو يتكون من قسمين : يبحث الأول فى الأقرباذين ، والثانى فى ملاحظات سريرية تتعلق بدراسة سير المرض مع العلاج المستعمل وتطور حالة المريض ونتيجة العلاج وقد عدد (ماكس ماير هوف) للرازى ٣٣ ملاحظة سريرية فى أكثرها متاع وطرافة . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية واعتمد عليه كبار علماء أوربا وأخذوا عنه الشىء الكثير وبقى مرجعهم فى مدارسهم وجامعاتهم إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلاد . وله كتب أخرى جليلة دفعت بالطب خطوات إلى الأمام ، منها كتاب المنصورى الذى يحتوى على وصف دقيق لتشريح أعضاء الجسم كلها . وهو أول كتاب عربى وصل إلينا فى هذا البحث . ترجم إلى اللاتينية وكانت له أهمية كبرى فى أوربا وظل معمولا به عند الأطباء وفى الجامعات حتى القرن السابع عشر الميلاد . وله أيضاً كتاب فى الأمراض التى تعترى جسم الانسان وكيفية معالجتها بالأدوية المختلفة والأغذية المتنوعة وقد أجاد فيه إجادة أثارت دهشة أطباء الغرب . وبقى هذا الكتاب عدة قرون دستوراً يرجع إليه علماء أوربا فى الموضوعات والبحوث الطبية . وله كتاب الأسرار فى الكيمياء ترجمه (كريمونا) فى أواخر القرن الثانى عشر للميلاد ، وكان الكتاب المعول عليه والمدرسى فى أوربا مدة طويلة . وقد رجع إليه (باكون) واستشهد بمحتوياته

وكذلك للرازى كتاب نفيس فى الحصبة والجدرى هو من روائع الطب الاسلامى عرض فيه للمرة الأولى تفاصيل هذه الأمراض وأعراضها والتفرقة بينها . وقد أدخل فيه ملاحظات وآراء لم يسبق إليها ، ترجمه الأوربيون إلى اللاتينية وغيرها من اللغات . وله كتب عديدة وردت فى كتاب طبقات الأطباء لايتسع المجال لذكرها . ولكن من الطريف أن نذكر أن أحدها كتاب موضوعه (كتاب من لا يحضره الطبيب) ويعرف بطب الفقراء وقد شرح فيه كيفية معالجة المرض فى غياب الطبيب والأدوية الموجودة فى كل مكان .

واعترف الغربيون بمآثره وابتكاراته فى أمراض النساء والولادة والمسائل الرمدية . وكذلك له جهود فى الأمراض التناسلية وجراحة العيون . وفوق ذلك قال بالبدوى الوراثية .

وأختم الكلام عن الرازى بالقول الشائع المعروف :

« كان الطب معدوماً فأحياه جالينوس ، وكان الطب متفرقاً فجمعه الرازى » والرازى فى الواقع لم يقف عند الجمع بل أضاف إضافات مهمة دفعت بالبحوث الطبية والكيمياوية خطوات إلى الأمام .

فوزى حافظ طوقان